[٢]

غواية بونابرت للأقليات.. ومحاولات سلخ مصر عن العروبة والإسلام

وإذا نحن نظرنا -تحديدًا- إلى عامل «الغواية الاستعمارية» لشرائح من أبناء الأقليات الدينية -فى الشرق الإسلامى- بعصرنا الحديث.. فإننا نستطيع أن نشير إلى «محطات» فى التوترات التى صنعتها هذه الغواية -بعدة قرون من مثيلاتها التى صنعتها الغزوة الصليبية [٤٨٩-٦٩٠هـ-١٠٩٦-١٢٩١م] فى تاريخنا الوسيط[١].

● فبونابرت [١٧٦٩- ١٨٢١م] الذى قاد الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣هـ-١٧٩٨م] والشام.. والذى حلم بإعادة إمبراطورية الإسكندر الأكبر [٣٥٦-٣٢٣ ق.م] الشرقية.. وتحقيق حلم الملك الصليبى القديس لويس التاسع [١٢١٤-١٢٧٠م].. قد أعلن.. وهو فى طريقه من مرسيليا إلى الإسكندرية -أنه سيجند ٢٠,٠٠٠ من أبناء الأقليات المسيحية فى مصر والشرق، ليتخذ منهم مواطئ أقدام لغزوته وإمبراطوريته الاستعمارية الفرنسية..

ولقد أثمرت غوايته الاستعمارية هذه ثمرات مرة، عندما سقط فى

(١) انظر كتابنا [الدراما التاريخية وتحديات الواقع المعاصر] طبعه القاهرة - دار السلام سنة ٢٠١١م.

مستنقعها قطاع من الأرثوذكس المصريين -الأقباط [1]- الذين كونوا «فليقًا قبطيًا» ضم ألفين من شباب الأقباط- تزيا بزى الجيش الغازى، وحارب معه ضد الشعب المصرى.. تحت قيادة «المعلم» يعقوب حنا [١٧٤٥- ١٨٠١م]- الذى أصبح «جنرالاً» فى الجيش الفرنسى الغازى- والذى يسميه الجبرتى [١١٦٧-١٢٣٧هـ - ١٧٥٤- ١٨٢٢م]- وهو مؤرخ العصر-: «يعقوب اللعين»!..

ولقاء هذه الخيانة -التى تركت جراحات عميقة فى الصف الإسلامى.. وفى الوحدة الوطنية- والتى بدأت مسيرة السقوط فى غواية التبعية للاستعمار الغربى، والمراهنة على دعمه لتغيير هوية الأمة وانتمائها الحضارى.. أعطى بونابرت وخلفاؤه للأقلية النصرانية -من القبط والشوام- بمصر- الوزن الأكبر فى إدارة شئون البلاد تحت الاحتلال الفرنسى.. كما عهد الجنرال «كليبر» [١٧٥٣- ١٨٠٠م] - الذى خلف بونابرت فى قيادة الحملة وحكم مصر- إلى المعلم يعقوب حنا:

«... **أن يفعل بالمسلمين ما يشاء!.. فتطاولت النصارى، من القبط ونصارى الشوام، على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانًا، كما صرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين**»![2]..

---

(١) القبطى هو المصرى.. فالمسلمون المصريون هم: أقباط مسلمون. والمسيحيون -النصارى- المصريون هم: أقباط مسيحيون.. لكننا -مجاراة للخطأ الشائع- سنستخدم مصطلح الأقباط للتعبير عن النصارى المصريين..

(٢) الجبرتى: [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج٥ ص١٣٤، ١٣٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

وبعد مشاركة «الفيلق القبطى» للفرنسيين الغزاة فى إبادة سبع الشعب المصـــرى- [٣٠٠,٠٠٠ من شـــعب كـــان تـعـــداده أقـل من ٣,٠٠٠,٠٠٠]- احـتـفلوا بانتـصـارات بونـابرت على أهل «غـزة» [١٢١٣هـ- ١٧٩٩م].. وكما يقول الجبرتى:

«.. فـأظهر النصـارى الفـرح والسرور، فى الأسـواق والدور، وأولموا فى بيوتهم الولايم، وغيـروا الملابس والعمايم، وتجمعوا للـهو والخلاعة، وزادوا فى الشناعة»![1].

وفى حمايـة المستعمر الفـرنسى، وفى ظلال سيوفه، أظهـروا الكيد للأغلبية المسلمة.. وبعبارة الجبرتى:

«.. فترفع أسـافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود، فـركبوا الخـيول، وتقلدوا السـيوف بـسبب خـدمتـهم للفـرنسيس، ومـشوا بالخـيل، وتلفظوا بفاحش القـول، واستذلوا المسلمـين، مع عدم اعتـبارهم للدين، إلى غير ذلك مما لا يحيط به الحسـاب ولا يسطر فى كتاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»![2].

● ولـم تنته هذه الغـواية -وهذا السقوط- بهـزيمة الحملة الفرنسـية على مصر، وجلاء جيشها [١٢١٦هـ-١٨٠١].. ورحيل المعلم يعقوب حنا وزمرته مع جيش الاحتلال.. وإنمـا خلف يعقوب -عقب هلاكه- من سموا أنفسهم «الوفـد المصرى»- أى اللاعربى واللاإسلامى - الذى

(١) الجبرتى [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس] ص١١٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.
(٢) المصدر السابق. ص ١١٢.

ذهب إلى فرنسا -بقيادة «نمر أفندى»- عارضًا العمالة على الإمبراطورية الفرنسية، حتى بعد هزيمتها!.. ومعلنًا عن استعداده لتطبيق القانون الفرنسى بمصر، بدلا من القانون الوطنى والفقه الإسلامى! بل وعارضًا تسخير الكنيسة الأرثوذكسية المصرية لتحقيق حلم فرنسا الكاثوليكية اختراق إفريقيا دينياً!..

وفى هذا الصدد، عرض هذا «الوفد المصرى»:

«الولاء لبونابرت».. وقالوا له: «إن الوفد المصرى، الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك، سيشرِّع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا.. وإن الجمهورية الفرنسية اليوم -إذا أرادت- يمكنها عن طريق الأمة المصرية، التى ستكون موالية لها، مدّ نفوذها نحو أواسط إفريقيا، وبذلك تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية»![1].

● وفى الوقت الذى كان هذا «الوفد المصرى» يراهن على فرنسا المهزومة.. كان المعلم يعقوب -قبيل هلاكه- قد كتب «وصيته» إلى إنجلترا الاستعمارية، لتحل محل فرنسا فى ضم مصر إلى السيطرة الغربية، لتغيير هوية مصر، وانتمائها، وعلاقاتها الإقليمية والدولية.. فطلب -فى هذه «الوصية» - التى بعث بها إلى وزير الحرب الإنجليزى -أن ترث إنجلترا مصر من الدولة العثمانية.. وقال:

---

(١) دكتور أحمد حسين الصاوى: [المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة] ص١٢٩، ١٣٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦م.

«توشك الإمبراطورية العثمانية على الانهيار، ولذا يهم الإنجليز، قبل أن تقع الواقعة، أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه، فيحققوا مصالحهم السياسية.

وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر -كما استحال ذلك من قبل على فرنسا -فيكفى أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا، صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها، إن بريطانيا لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية، ويضمن لها بالتالى أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها.. إن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا.. ومن ثَمَّ فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر، وهذا الاستقلال لن يكون نتيجة وعى الأمة، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء!..

وللدفاع عن هذا الاستقلال.. فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوة أجنبية تعمل لحسابهم، يتراوح عددها بين ١٢,٠٠٠ و١٥,٠٠٠ جندى، يكفون تمامًا لصد الترك عن الصحراء، ولسحق المماليك داخل مصر..»[١].

فالوصية اليعقوبية، هى باستقلال مصر عن ذاتها الحضارية، وماضيها وحاضرها الإسلامى ومحيطها القومى والحضارى -أى الانسلاخ عن العروبة والإسلام-.. وإخضاعها لنفوذ إنجلترا، لتكون

(١) [المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة] ص١٢٣- ١٢٥- ملحق رقم ٦.

موالية لبريطانيا، التى تستأثر بتجارتها الخارجية. هذا «الاستقلال» الذى تفرضه القوات الأجنبية على المصريين «المسالمين الجهلاء»!..

كما قال المعلم يعقوب اللعين!..

هذا عن جبهة الأقلية الأرثوذكسية بمصر، فى أولى محطات السقوط فى غواية الاستعمار الغربى -فى عصرنا الحديث-..

***

● وعلى جبهة الأقليات اليهودية.. رمى بونابرت حبال هذه الغواية الاستعمارية أيضًا.. وذلك عندما أذاع -وهو على أسوار عكا [١٢١٣هـ- ١٧٩٩م]- نداءه إلى يهود العالم، طالبًا منهم التأييد والدعم لطموحاته الاستعمارية فى الشرق الإسلامى، لقاء إعادة زرعهم فى فلسطين.. فقال فى هذا النداء:

«أيها الإسرائيليون، **أيها الشعب الفريد**.. انهضوا بقوة، أيها المشردون فى التيه.. لا بد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت العبودية، وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة..

إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل.. إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به.. قد اختار القدس مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة، التى استهانت طويلا بمدينة داود وأذلتها..

ياورثة فلسطين الشرعيين، إن الإمة الفرنسية.. تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»![1].

تلك كانت «المحطة الأولى» من محطات الغواية الاستعمارية للأقليات الدينية الشرقية فى عصرنا الحديث.

●●●

(١) محمد حسنين هيكل: [المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل -الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية]- الكتاب الأول -ص ٣١، ٣٢ -طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.